قصص الرحالة

- ٣ -

فاسكو دا جاما

« Vasco Da Gama »

فاسكو دا جاما

الَّذِي كَشَفَ الطَّرِيقَ البَحْرِيَّ إِلَى الهِنْدِ يَتَحَدَّثُ إِلَيْكُمْ :

« أَبْنَائِي الأَعِزَّاءَ ! أَسْعِدْتُمْ صَبَاحًا . أَنَا « فَاسْكُو دَا جَامَا » . وَقَدْ وُلِدْتُ فِي البُرْتَغَالِ . وَسَأَقُصُّ عَلَيْكُمُ الآنَ كَيْفَ وَصَلْتُ إِلَى الهِنْدِ.

غَادَرْتُ « لَشْبُونَةَ » فِي يُولِيه سَنَةَ ١٤٩٧ وَمَعِي مِائَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلاً عَلَى ظَهْرِ أَرْبَعِ سُفُنٍ ، مُتَّجِهِينَ نَحْوَ الجَنُوبِ . وَبَعْدَ مَسِيرِ بِضْعَةِ أَيَّامٍ ، صَادَفَنَا ضَبَابٌ كَثِيفٌ ، فَضَلَّتْ كُلُّ سَفِينَةٍ عَنِ الأُخْرَى . عَلَى أَنَّنَا لِحُسْنِ الحَظِّ ، الْتَقَيْنَا جَمِيعًا مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَسَابِيعَ فِي جَزَائِرِ الرَّأْسِ الأَخْضَرِ ، حَيْثُ أَصْلَحْنَا سُفُنَنَا ، وَأَضَفْنَا إِلَى ذَخِيرَتِنَا مَقَادِيرَ جَدِيدَةً مِنَ الخَشَبِ وَاللُّحُومِ وَالمَاءِ . وَأَقْلَعْنَا مُتَّجِهِينَ نَحْوَ الجَنُوبِ ، فَقَابَلَتْنَا رِيَاحٌ جَنُوبِيَّةٌ شَرْقِيَّةٌ ، عَاقَتْ سَيْرَنَا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ نَرَ الأَرْضَ إِلاَّ بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ حِينَ وَصَلْنَا إِلَى خَلِيجٍ أَسْمَيْتُهُ فِيمَا بَعْدُ « خَلِيجَ سَنْتِ هِيلاَنَة » . وَفِي ذَلِكَ المَكَانِ ، شَاهَدْنَا أُنَاسًا قِصَارَ القَامَةِ ، سُمْرَ اللَّوْنِ يَلْبَسُونَ الجُلُودَ . وَلَقَدْ قَدَّمَ لَنَا هَؤُلاَءِ القَوْمُ طَعَامًا ، وَدَفَعْنَا ثَمَنَهُ قِطَعًا مِنَ الزُّجَاجِ ، وَأَجْرَاسًا نُحَاسِيَّةً صَغِيرَةً ، وَخَوَاتِمَ مِنْ صَفِيحٍ . وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ تَأَلَّبَ القَوْمُ عَلَيْنَا، وَبَدَتْ مِنْهُمْ نَحْوَنَا رُوحٌ عَدَائِيَّةٌ شَدِيدَةٌ : فَجَعَلُوا يَرْمُونَنَا بِالحِرَابِ ، حَتَّى لَقَدْ جُرِحْتُ أَنَا وَثَلاَثَةٌ مِنْ رِجَالِي ، جُرُوحًا بَالِغَةً ؛ فَتَرَكْنَا المَكَانَ عَلَى عَجَلٍ . وَوَاصَلْنَا السَّيْرَ حَوْلَ رَأْسِ الرَّجَاءِ الصَّالِحِ ، وَلَكِنْ كَانَ دُونَ الوُصُولِ إِلَيْهِ ، اهْوَالٌ شَتَّى !! فَلَقَدْ كَانَ البَحْرُ تَكْتَنِفُهُ العَوَاصِفُ الثَّائِرَةُ ، وَكَانَ النَّهَارُ مِنَ القِصَرِ ، بِحَيْثُ كَانَ يُخَيَّلُ لَنَا أَنَّ الدُّنْيَا فِي لَيْلٍ مُسْتَمِرٍّ !! وَكَانَ البَرْدُ شَدِيدًا ، حَتَّى لَقَدْ جَمَدَ الدَّمُ فِي عُرُوقِ الرِّجَالِ ، وَأَصْبَحُوا وَهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حَرَاكًا !! وَكَادَتِ السُّفُنُ تَغُوصُ بِمَنْ فِيهَا إِلَى قَعْرِ البَحْرِ !

لِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنَ الْخَلَلِ بِسَبَبِ الزَّوَابِعِ ، وَلِتَسَرُّبِ الْمَاءِ إِلَى دَاخِلِهَا . وَسَادَ الْخَوْفُ ، وَتَمَكَّنَ الْفَزَعُ مِنْ نُفُوسِ الْبَحَّارَةِ ، وَأَصْبَحُوا عَاجِزِينَ حَتَّى عَنِ الْقِيَامِ بِتَجْهِيزِ الطَّعَامِ ! وَأَلَحُّوا عَلَيَّ بِالْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِهِمْ ؛ لَوْلَا أَنِّي بَعَثْتُ فِيهِمْ رُوحَ الْأَمَلِ .

وَبَقِينَا هَكَذَا بِضْعَةَ أَيَّامٍ لَا نَرَى الْأَرْضَ وَأَخِيرًا وَصَلْنَا إِلَى الرَّأْسِ فَصِحْنَا فَرَحًا ، وَرَقَصْنَا ، وَغَنَّيْنَا ، وَأَطْلَقْنَا بَنَادِقَنَا ، وَنَفَخْنَا فِي الْأَبْوَاقِ ! ! وَسِرْنَا مُحَاذِينَ لِلشَّاطِئِ ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ تَكْسُوهَا الْمَرَاعِي النَّضِرَةُ ، وَالْغَابَاتُ الْجَمِيلَةُ ؛ وَفِي يَوْمِ عِيدِ الْمِيلَادِ ؛ رَسَوْنَا عَلَى مَكَانٍ أَسْمَيْتُهُ فِيمَا بَعْدُ « نَاتَالَ » . وَكَانَتْ سُفُنُنَا فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى الْإِصْلَاحِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا مَاءٌ لِلشُّرْبِ ، لِأَنَّ (بَرَامِيلَ) الْمَاءِ كَانَ قَدْ تَكَسَّرَ مُعْظَمُهَا فِي أَثْنَاءِ الزَّوَابِعِ . وَأَخَذْنَا نَتَلَمَّسُ مَكَانًا صَالِحًا نَسْتَرِيحُ فِيهِ ؛ وَفِي فَجْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ ، وَصَلْنَا إِلَى مَصَبِّ نَهْرٍ كَبِيرٍ ، حَيْثُ أَقَمْنَا شَهْرًا ، اسْتَرَحْنَا فِي أَثْنَائِهِ ، وَأَصْلَحْنَا سَفِينَتَيْنِ مِنْ سُفُنِنَا ؛ أَمَّا الثَّالِثَةُ فَكَانَ قَدْ تَلِفَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَأَصْبَحَتْ لَا تُفِيدُ كَثِيرًا ، فَكَسَّرْنَاهَا ، وَأَحْرَقْنَا مَا بَقِيَ مِنْ خَشَبِهَا ، لِنَحْتَفِظَ بِالْمَسَامِيرِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا .

وَتَوَغَّلْنَا دَاخِلَ الْبِلَادِ ، وَرَأَيْنَا أُنَاسًا سُمْرَ اللَّوْنِ ، تَقَدَّمُوا نَحْوَنَا بِدُونِ وَجَلٍ ؛ وَحَاوَلْنَا التَّفَاهُمَ مَعَهُمْ بِالْإِشَارَاتِ ، فَأَعْطَيْنَاهُمْ « بسكوتا » وَكَعْكًا وَخُبْزًا عَلَيْهِ مُرَبَّبُ اللَّارِنْجِ . وَقَدْ أَعْجَبَهُمْ طَعْمُ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ كَثِيرًا ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ كَانَ يَأْكُلُ كُلَّ مَا يُعْطَى لَهُ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ ، حَرِيصًا كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَأْكُلَهُ بِمُفْرَدِهِ .

ثُمَّ غَادَرْنَا النَّهْرَ ، وَاتَّجَهْنَا فِي الْبَحْرِ شَمَالًا ؛ فَمَرَرْنَا بِأَرْضٍ تَكْسُوهَا حَدَائِقُ جَمِيلَةٌ ، وَأَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ ، وَفِي مَارِسَ وَصَلْنَا إِلَى « مُوزَمْبِيقَ » حَيْثُ وَجَدْنَا أَرْبَعَ سُفُنٍ لِتُجَّارٍ مِنَ الْعَرَبِ ، مُحَمَّلَةٍ ذَهَبًا وَفِضَّةً ، وَقَرَنْفُلًا وَفُلْفُلًا وَزَنْجَبِيلًا وَلُؤْلُؤًا وَيَاقُوتًا . وَقَدْ رَسَوْنَا فِي هٰذَا الْمَكَانِ وَأَحْسَنَ الْقَوْمُ وِفَادَتَنَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا الْحَاكِمُ هَدِيَّةً مِنَ الطُّيُورِ وَجَوْزِ الْهِنْدِ وَالتِّينِ وَالْغَنَمِ ، وَلٰكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ ، تَأَلَّبُوا عَلَيْنَا ، وَرَفَضُوا أَنْ يَبِيعُوا لَنَا الطَّعَامَ وَحَاوَلُوا قَتْلَ جَمَاعَةٍ مِنَّا ، كَانُوا قَدْ ذَهَبُوا إِلَى الشَّاطِئِ لِيَمْلَئُوا (الْبَرَامِيلَ) مَاءً .

وَغَادَرْنَا « مُوزَمْبِيقَ » شَمَالًا ، فَوَصَلْنَا إِلَى « مِيلِنْدِي » قُرْبَ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ ، حَيْثُ الْجَوُّ دَافِئٌ نَوْعًا ؛ وَلَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بِمَقْدَمِنَا ، بَعَثَ إِلَيْنَا بِهَدِيَّةٍ مِنَ الْغَنَمِ وَالطُّيُورِ وَالْخُضَرِ ؛ وَبَعَثْتُ لَهُ فِي

مقابلها ، « زهرية » من الفضة ، وقطيلة (بشكيراً) وعقدين من المرجان وقبعة وأجراساً وآنية لغسل الأيدي ، ولقد تزاورنا ، وقامت بيني وبينه مودة عظيمة ، وبعد أيام قليلة ، واصلنا السير في المحيط الهندي شرقاً ؛ وبعد شهر ، وصلنا إلى « كاليكوت » بالهند ؛ وهناك حاولنا أن نتودد إلى الأهالي ، ونتعرف بهم ، لنستطيع أن نشتري منهم بعض التوابل ، كما نود بها إلى بلادنا ؛ فيصدق الملك أننا وصلنا إلى الهند بطريق البحر .

واستطعنا بعد جهد ، مقابلة حاكم « كاليكوت » ، وسمح لنا أن نتاجر مع الأهالي . على أن ذلك لم يفدنا كثيراً ، لأن الهنود كانوا يسخرون بنا ، ويضحكون منا ؛ كلما عرضنا عليهم سلعنا من القبعات والمرجان والسكر والزيت ، مقابل التوابل . إذ كانوا يطلبون ذهباً أو فضة أو نسيجاً أحمر .

كان الهنود يسخرون منا كلما عرضنا عليهم سلعنا

وبعد قليل من الزمن ، انقلب الحاكم علينا ؛ وغير رأيه فينا ؛ لأن التجار الأعراب ، الذين كانوا يهيمنون على الأسواق في تلك الميناء حرضوا الحاكم ضدنا ، وملئوا رأسه بالوشايات فقبض علينا ؛ وزجني أنا وبعض رجالي ، في السجن ، على أني تمكنت ، أنا ومن معي ، من الهرب بعد قليل .

وعولنا على الرجوع ، واستغرقت عودتنا ثلاثة أشهر . وكان من أشد ما قاسيناه ، مرض غريب انتشر بين رجالي . ذلك أن اللثة كانت تنمو فتغطي الأسنان ، ثم يعقب ذلك سقوط الأسنان ، فيتعذر الأكل . ثم إن الواحد منهم كان يصيبه الورم في رجليه وفي أجزاء أخرى من جسمه فيموت في الحال . ومات منا ثلاثون رجلا بتلك الأمراض ومن بقي منهم على قيد

الحياة ، كانوا على درجة عظيمة من الضعف ولو أن المرض طال أمره أسبوعين آخرين ، لفنينا عن آخرنا .

وفي النهاية ، وصلنا إلى لشبونة ، بعد أن مات منا مائة رجل ؛ وعند وصولنا ، أرسل الملك مندوبين عنه لاستقبالنا ، ولاستدعائنا إلى قصره . وهناك مثلنا بين يديه ، وقصصت عليه ما كان من أمر رحلتنا ، وما تكبدناه في سبيلها . فأعجب بنا كثيرا ؛ لأننا كنا أول من كشف الطريق البحري إلى الهند . »

جلفر

— ٢ —

« بعد أن قرر الملك الإبقاء على حياتي ، راجيا إياه أن يطلق سراحي . فأجابني بأنه لا أصدر أوامره بأن يقدم لي ما أحتاج من الطعام يستطيع ذلك وقتئذ ، واعدا بالنظر في ذلك وبأن يقوم ستة من الرجال بتعليمي لغة البلاد ؛ الطلب فيما بعد . ثم قال : « أرجو ألا تغضب ، وقد تم ذلك في ثلاثة أسابيع ، أصبحت بعدها قادرا على فهم تلك اللغة ، والتكلم بها بسهولة . وكان كثيرا ما يأتي الملك لزيارتي في أثناء الدرس ، ويشير على المعلمين بنصائحه وإرشاداته . وفي إحدى زياراته لي ، خاطبته بلغة البلاد ، إذا طلبت من بعض جنودي ، أن يفتشوك ، ليروا ماذا تحمل في جيوبك ؟ فقد يكون معك شيء خطير علينا . » فأجبته : « يسرني كثيرا أن أطلع رجالك على كل ما معي . »

وأخذ الرجلان يفتشاني

وفي اليوم التالي ، حضر إلي رجلان ، وأخذا